نحو عالم أفضل

ألف هذا الكتاب «برتراندرسل»

ترجمة الاستاذ درينى خشبة وترجمة الاستاذ عبدالكريم أحمد.

يقول المترجم ولد برتراندرسل وفى فمه ملعقة من ذهب فهو ابن لورد واسع الثروة مات وابنه- برتراند- فى الثالثة من عمره كما توفيت أمه قبل ذلك بسنة تقريبا.. لكن الطفل لم يشعر قط بمرارة اليتم لأنه نشأ فى قصر جده

هذا الذى عاش فى برج عاجى كان يطب لأدواء الإنسانية حتى قال نقاده: كيف؟ إنه لم يتمرس بآلامها ولم يشق بما شقيت به من تجارب ومحن.

وهل الأطباء الذين يعالجون أمراض الناس، يفعلون من منطلق إصابتهم بها؟

لقد ورث رسل عن أبيه حرية الفكر.. لقد تحمس الأب لكل الآراء التى كانت تزلزل المجتمع فى أواخر القرن التاسع عشر، كالدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة فى جميع الحقوق المدنية، وحق المرأة فى الانتخاب، وإباحة الطلاق، وحرية الاعتقاد، وضبط النسل، وإلغاء المدارس التبشيرية.. إلخ.

لقد نسى النقاد عنصر الوراثة.

ولبرتراندرسل عندى، بد

لقد عاش عمره، يكن لمصر حباً خاصاً.

كانت مربيته الألمانية تندد بالإنجليز الذين دخلو يحتلون مصر بدون وجه حق.. وأن وعودهم بالجلاء، هباء فكان يثور عليها فى البداية ولكنه فى النهاية اقتنع بصحة ماذهبت إليه. وهنا حزن حزنا شديدا على مصر ولمس خداع مواطنيه ومماطلتهم وعزا ذلك إلى الخطأ والانحراف فى التربية التى يتلقاها الانجليز فى مدارسهم وهم أطفال.

وكذلك يعزو الحروب إلى سوء مناهج التعليم فى مدارس الأمم جميعا.

لقد كانت الحرب العالمية الأولى بويلاتها، مما أحزن «رسل» على البشرية، وراء وضع هذا الكتاب فقد خلا إلى نفسه ليضع خطة عملية لوقف هذه المجزرة بعد تشخيص أسبابها، وتشخيص علل البناء الاجتماعى فى العالم كله فجاء هذا الكتاب دعوة إلى التسامى من خلال المعرفة والفن والخير.

يقول «رسل» (إن القتال فى سبيل الحرية اقتضى أن يكون الناس أقسي قلوبا وأكثر تباعدا بعضهم عن بعض، ولا ينتظر أن يزول هذا الأثر تماما فى المستقبل، وإذا أردنا أن ينمو مجتمع تدب فيه الحياة فلامناص من أن نغير نظمنا من أساسها بحيث تتضمن احترام الفرد وحقوقه.. الأمر الذى يتطلبه العصر الحديث).

وكان طبيعيا أن يؤيد «رسل» نظرية «مارتين لوثر» التى تقول أن الخطأ جائز على كل إنسان وأن رجال الدين غير معصومين من الخطأ، وأن لكل فرد الحق فى أن يحكم عقله فيما يؤمن به.

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الرأى أن نشأ مع مضى الوقت الاعتقاد بأحقية الشخص فى اختيار عقيدته الدينية دون تدخل من أى سلطة، وهكذا بدأت معركة الحرية فى ميدان الدين... فى أوروبا... وفى هذا الميدان كان انتصار الحرية أتم منه فى أى ميدان آخر.

ظل «رسل» يلهج بالحرية حتى أنه فى الفصل الذى عقده عن (الدولة) قال إن الحرب إذا مافتئت خطرا وشيك الوقوع فى أى يوم فستظل الدولة شبحا مخيفا تضحى فى بعض الأحيان بحياة الفرد، وتضحى دائما بارتقائه الذى لايصح أن يتقيد بقيد، فى سبيل النضال العقيم من أجل السيادة بسبب التنافس بينها وبين الدول الأخرى.

ألا إن أبشع أعداء الحرية، سواء فى الشئون الداخلية أو الشئون الخارجية، هى الحرب.

لقد أدان الحلفاء وانجلترا منهم بالطبع بأنهم شركاء الألمان فى تأجج الحرب لأنهم حاولوا أن يفرضوا على الألمان الـ Statnsguo أى الوضع الراهن.. ومن هنا كانت رغبة الألمان فى اشعال الحرب لقلب هذا الوضع الراهن رأسا على عقب، ومن هنا أيضا كانت رغبة الحلفاء فى الحرب للحيلولة دون أن يكون قلب الوضع الراهن فى صالح الألمان.

ويندد «رسل» باستنزاف الطبيعة فى قوله (إن أكبر الشعوب مدنية معرضه للانقراض تدريجيا أن كل مدينة كبيرة هى بؤرة من بؤر الفساء للجنس البشرى. وقد كتب سير هـ. لبولين سميث عن حالة مدينة لندن من هذه الناحية مدعما ما كتبه، باحصائيات مستفيضة.

ولاشك أن ماذكره يصدق على حالات أخرى. وهو يصدق أيضا عن مصادر المادة. والعالم يستهلك المعادن، والغابات البكر وحقول الغلال استهلاكا مسرفا ستكون نتيجته التى لاشك فيها التسبب للأجيال المقبلة فى عنت شديد) .

ومن أروع ماكتب رسل رسم صورة (المربى الحقيقى) الذى لايعمل على اعداد الطفل لتحقيق أهداف تفرضها الدولة أو أى سلطة أخرى غريبة عن الطفل نفسه.

إن المربى الحقيقى هو الرجل الذى يتوفر لديه الاحترام لإنسانية الطفل فلا «يصوغ» الأطفال.. إنه يحس بوجود شئ قدسى فى كل حىّ وخاصة فى الأحياء من البشر.. وفوق كل شئ فى الأطفال.. شئ علوى لا يعرف له كنها ولاحدودا.. شئ فردى فريد فى قيمته هو جوهر الحياة النامى قطعه مجسمة من كفاح الدنيا الأبكم... إن هذا الرجل يحس خضوعا ومذلة فى حضرة الطفل لايعرف لهما سببا.. خضوعا لايسهل على العقل تفسيره... ولكنه أقرب إلى الحكمة من تلك الثقة بالنفس التى يبديها الكثيرون من الآباء والمدرسين.

***

ومن الطريف اقتراح «رسل» لتدعيم العلاقات الطيبه بين الدول، فإن احدى الخطوات الأولى التى يجب أن تتخذ هى وضع جميع أنواع تعليم التاريخ تحت اشراف لجنة دولية محايدة خالية من التحيز الذى تمليه الوطنيه، الذى تعمل كل دول العالم على استشارته فى الوقت الحاضر.

ويحارب «رسل» القولبة فى التعليم.. إن الطفل روح حرة من الجُرم وضعها فى قالب. إن هذا ضد الحياة (إن التعليم الذى أساسه وجوب تصديق كل مايدرس سرعان مايقود المرء فى خطوات سريعة إلى فساد القوى الذهنية، ولا يمكن المحافظة على الحد الأدنى الضرورى من التقدم البشرى إلا بالابقاء على روح البحث الحر).

إن الفصول الكبيرة والمدرسين المرهقين، وهما من آثار الاقتصاد غير السليم هما السبب الذى يجعل الطاعة تبدو ضرورية فى المدارس.

إن الذين لم يجربوا التدريس يعتقدون أن المدرس يستطيع أن يعمل عددا من الساعات كأنه كاتب فى مصرف. وتكون النتيجة أن يصاب المدرس بالاعياء الشديد والانفعال العصبى ويصبح

ولاحيلة لـديه إلا أن يؤدى عمله بطريقـة آلية. ولكن التـدريس لايمكن أن يكون عمـلا آليا إلا إذا فرضنا الطاعة على التلاميذ.

إن المدرس الذى يجد فى عمله لذة حقـيقية، لا يغيب عن باله حاجات التلمـيذ العقلية. وهنا تنشأ بين المدرس والتلميذ علاقة طيبـه بدلا من روح العداء. وكل مايلزم للوصول إلى هذه النتيجة هو زيادة الانفـاق للحـصول علـى مدرسـين يتـوفر لـديهم وقت فراغ اوسـع وميل طبـيـعى لمهنة التدريس.

ويندد «رسل» بالصـراع المحموم الذى يدور حـول الامتحـانات والشهـادات والدرجات فى النظام التقليـدى العقيم.. الذى لايتـرك للدارس وقتا للتفكيـر أو الاستمـتاع العقلى فينتـهى الأمر بأكثر التلاميذ ذكاء إلى النفور من الدراسة والرغبة فى نسيانها والخروج إلى حياة العمل فإذا بالآلة الاقتصادية تطحنهم بعد أن تكبت جميع رغابتهم التلقائية وتحطمها.

***

ورسل الذى يتهم فى عقيدته من بعض الناس، يقول:

(إن الدين أكثر أهمية من السياسة. وإن أئمة الدين يجب أن يتنزهوا عمايد نسهم تنزها تاما.. وهذا أمر أكثر لزوما لهم منه للساسة).

ويقول:

(يمكننا أن نقول إن الناس يصدرون فى أعمالهم عن أصول ثلاثة ليس بينها وبين بعض كبير فرق.. إلا أنها تتميز من بعضها تميزا يكفى لأن يجعلنا نطلق عليها أسماء مختلفة.. والأصول التى أعنيها هى:

الغريزة العقل والروح.

وحياة الروح من بين هذه الأصول الثلاثة هى التى تصنع الدين.

ويقول: (نحن فى حـاجة إلى شئ كلى وغـير شخصـى أولا وقبل كل شئ مما ينشأ عن مـبدأ النمو الفردى، وهذا هو ما تمنحنا إياه حياة الروح).

إنها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة وترد الشارد إلى مكانه فى الحياة الإنسانية.

إن الذين ولجوا يوما فى عالم الفكر يؤمنون بأن السعادة والسلام لايمكن أن يعودا إلى هذه الدنيا إلا عن طريق الروح.

كتاب بعيد الأعماق... واسع الآفاق، جميل الرؤى، إنسانى النزعه، صائب الرأى والفكره ولمثل هذا أو بعضه، تقرأ الكتب..

يكفى كتاب «رسل» أن الدول الكبرى، بعد الحرب العالمية الثانية، كان هذا الكتاب أشبه ببرنامج لها فى كل شئ.. حتى فى المساواه التامة بين الرجل والمرأة.. فلقد أقاموا مجلس الأمن على ما يقرب من الأسس التى اقترحها «رسل» وأخذوا يعالجون مواضع الخلل فى بنائهم الاجتماعى، وأباحوا الطلاق وإن جعلوه مديناً بعيدا عن الدين، وعملوا على معونة الطبقات الممتازة من أهل الفكر مخافه أن تنقرض لخوف أبنائها من الزواج بسبب عجزهم المادى عن مقوماته.. وأنشاؤ البنك الدولى لإقراض الأمم المحتاجة أو المتخلفة لتنفيذ الاصلاحات العمرانية الكبرى فى مختلف بقاع الأرض حينما تعجز الأمم منفرده عن تنفيذها وأخذوا يعالجون عيوب التربية فى الأمم الراقية والأمم المتخلفه على السواء وأخذت تجارب التربية الأساسية تجرى فى كثير من بقاع العالم ومن جملتها مصر.

وأخذت مؤسسة اليونسكو تبث أضواء الثقافة وتنشر نور العرفان على أسس عالمية تهدف إلى التبشير بالإخاء الإنسانى بين أهل الأرض جميعا.

وهكذا نتبين أننا أمام كتاب جامع بعيد الأثر.. والخطر.